الناقد

العدد الرابع والعشرون ■ حزيران/يونية ١٩٩٠
■ السنة الثانية
No. 24 ■ JUNE 1990 ■ YEAR 2

AN.NAQID
A MONTHLY CULTURAL REVIEW

شهرية تعنى بإبداع الكاتب وحرية الكتاب

الحداثة المحاربة المحارَبة

محمد مصطفى هدارة،
محمد يوسف نجم،
محمد ابراهيم الشوش
خلدون الشمعة

■ الصادق النيهوم:
وجهان ومواطن واحد

■ أنسي الحاج:
كنت أسكن رأسي
لا لبنان

■ عمر الدقاق:
حين ينحرف الأدباء

■ محي الدين صبحي:
جناية محمود أمين
العالم على الشعر العربي

■ محي الدين
اللاذقاني:
قراءة سريعة في بعض
طروحات الفكر
المخصي

■ عبد النبي اصطيف:
مكونات النص الأدبي
العربي الحديث

■ غالب غانم:
جاهلية القديم
وجاهلية الحديث

■ أحمد الدريس:
ديكتاتورية النقد
الماركسي

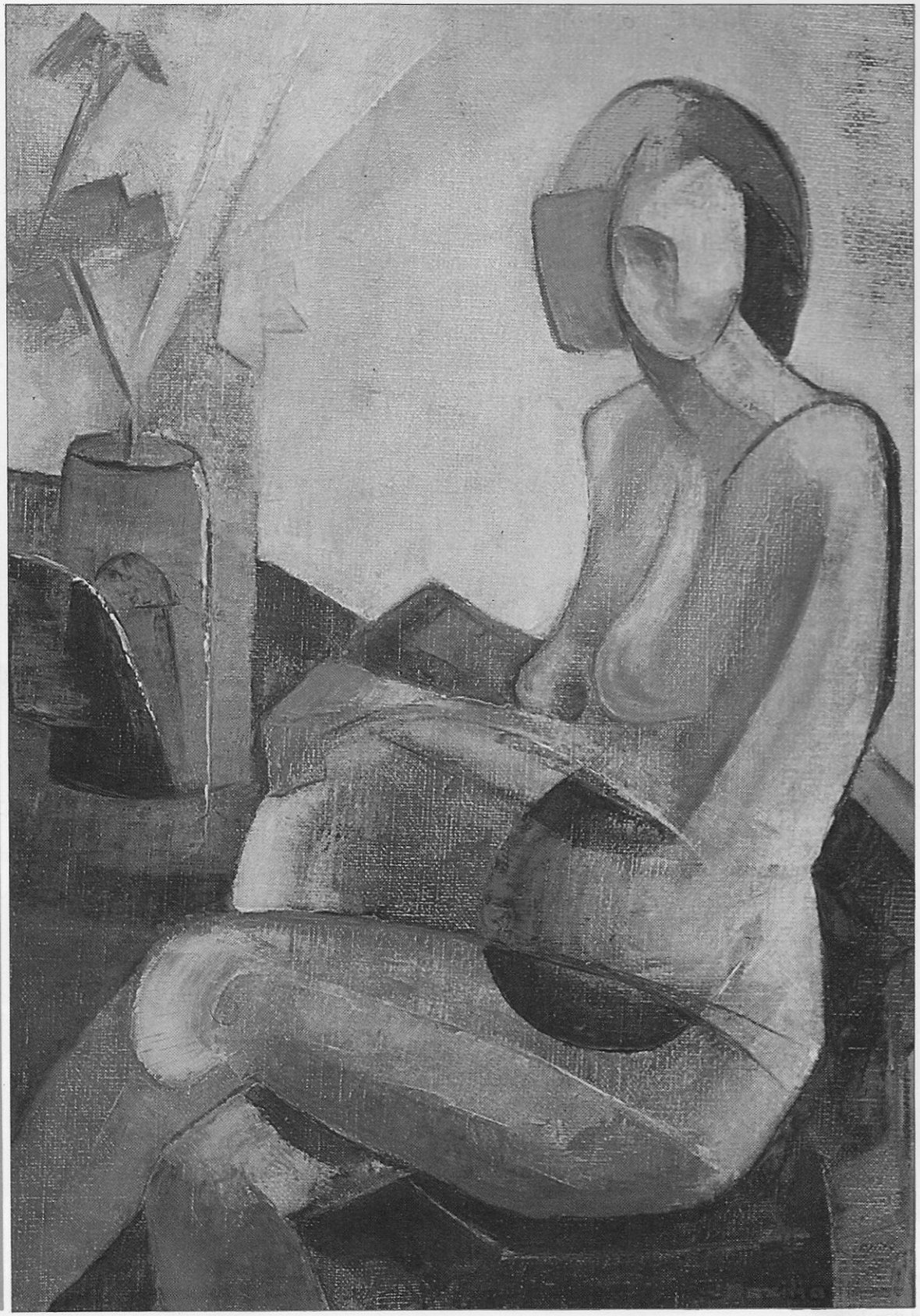

£ 3.00 in U.K.

مكونات النص الأدبي العربي الحديث

في مفهوم النص

عبد القيس اصطيف

■ ثمة مسوغات عديدة للنظر في طبيعة النص الأدبي العربي الحديث؛ وربما كان من أهمها تعزيز التوجه الجديد الملاحظ مؤخرا في النقد العربي الحديث نحو العناية بالنصوص الأدبية ذاتها، بدل الانصراف الى دراسة منتجها (الكاتب) والبحث في حياته الشخصية، أو بيئته، أو ظروفه، من مفاتيح لهذه النصوص من جهة؛ أوالانشغال المفرط بالصلة المفترضة بين هذه النصوص والواقع التي تصل في وهم بعض النقاد الاجتماعيين السذّج الى درجة التماهي Identification أو التوحد بين الفن والواقع الذي يشير اليه من جهة أخرى.

وواقع الحال ان عملية النظر هذه مفيدة في ترسيخ جذور فعاليتين مهمتين من فعاليات هذا النقد العربي الحديث:

ـ أولهما النقد التطبيقي، أو تفسير نصوص الأدب الحديث الفردية على اختلاف أجناسها ومنتجيها. ذلك ان الناقد العربي التطبيقي، في مواجهته لهذه النصوص الفردية يمكنه ان يستند الى بعض المنطلقات النظرية المتصلة بطبيعة النص الأدبي العربي الحديث، ومكوناته، وطبيعة الصلة القائمة فيما بين هذه المكونات، ويتخذ من هذه المنطلقات هوى، او معالم، تهديه في تحركه إزاء النص المدروس، وفي مقاربته له على الوجه الأمثل، وخاصة إذا كانت هذه المنطلقات نفسها منبثقة أساسا من مواجهة مباشرة للنص الأدبي العربي الحديث، وقائمة على التفكير المنظم المستلهم لحصيلة العلوم الانسانية الأخرى، كاللغويات وعلم النفس والسيميائيات، وما لحق بها من تقدم في العصور الأخيرة.

ـ وثانيهما النقد النظري، او بحوث نظرية الأدب الداخلية Poetics الخاصة بالأدب العربي الحديث، أو الشعرية، كما يروق لبعض نقاد العرب المحدثين ان يسمونها. وهذه الفعالية مهمة جدا في النهوض بالفكر الأدبي السائد في المجتمع العربي الحديث. ذلك ان مختلف فعاليات النقد العربي الحديث، بما فيها النقد التطبيقي، ينبغي ان تضع نصب أعينها هدفا رئيسيا هو الوصول الى النظام الأدبي The Literary System الذي يحكم عملية الانتاج الأدبي العربي الحديث وعملية تقويم هذا الانتاج واستقباله في المجتمع؛ أو بعبارة اخرى الافصاح عن الافتراضات الضمنية المتصلة بالأعراف والقيم والمعايير والمقاييس والتقنيات والمذاهب الأدبية لدى المنتج ـ الكاتب، والمستهلك ـ القارىء (والناقد قارىء يملك الوقت والخبرة النوعية)، وتوضيحها، وإعادتها الى النظام المتكامل الذي تشكله، أو الى اطار الاشارة Frame of Reference الذي تحيل عليه، والذي يحكم كل ما يتصل بالعملية الأدبية في المجتمع العربي الحديث.

اما بالنسبة لدارس النقد العربي الحديث، أو لناقد هذا النقد، فإن النظر في طبيعة النص الأدبي العربي الحديث متطلب منهجي لازب. ذلك ان لوازم الاهتمام بموضوع دراسته (النقد العربي الحديث) ان يعنى بكل ما يحكم هذا الموضوع او يحدده ويمنحه هويته الخاصة به والتي تجعله نقدا أدبيا وليس أي شيء آخر. ونحن مهما اختلفنا حول طبيعة النقد الأدبي العربي الحديث، لا نستطيع إلا ان نقر بأنه انشاء discourse عن إنشاء[1] آخر هو الأدب، أي أنه إنشاء يتخذ من الأدب موضوعا له. ولما كان هذا الانشاء يشترك مع موضوعه في الاداة نفسها (وهي اللغة الطبيعية ـ أي اللغة العربية في هذا المثال)، فإنه محكوم لذلك بهذا الموضوع[2]، بمعنى ان ما يحدد هويته هو صلته العضوية به. فهو نقد أدبي يستمد صفته المميزة له عن باقي أنواع النقد الأخرى (كنقد الفنون التشكيلية والموسيقى والرقص والعمارة وغيرها) من موضوعها ـ الأدب. وهذه الصلة العضوية بين الانشاءين (الانشاء النقدي Critical discourse والإنشاء الأدبي Literary discourse) تقودنا الى استنتاج مهم هو ان مكوناتها تكاد تكون

١ـ أنظر:
Roland Barthes, Critical Essays, Translated from the French by Richard Howard (Northwestern University Press, Evanston, 1972), p.258.

٢ـ أنظر:
Rene' Wellek, The Attack on Literature and Other Essays (The Harvester Press, Sussex, 1982), p. 138.

واحدة ـ أي أن مكونات Constituents الانشاء النقدي هي نفسها مكونات الانشاء الأدبي[٣]. والنقد الأدبي في نهاية المطاف، كما تقدم، ليس غير الافصاح عن الفكر الأدبي الذي يحكم ضمنا الممارسة الأدبية، والناقد عندما يشير الى أية قيمة او عرف او مقياس او معيار او تقنية أو مذهب لا يخلق شيئا من العدم، انه يسمي الأشياء بأسمائها، على حد قول نعيمة في الغربال؛ فالكاتب ينتج والناقد يستنبط القيم والاعراف والمقاييس والمعايير والتقنيات والمذاهب الأدبية من هذا الانتاج، او يحولها من كونها ضمنية خفية الى صريحة بينة للعيان. والحقيقة ان عملية الانتاج الأدبي بحاجة الى كل من الكاتب والناقد معا حتى تترسخ جذورها في أي مجتمع حي. واذا كان الكاتب ينقاد في ممارسته للكتابة بحسه الداخلي وخبرته المهنية ورغبته في الابداع، فان الناقد ينقاد في مواجهته لهذه الممارسة، او حصيلتها ان شئنا الدقة، بالتفكير المنظم والواضح والدقيق حتى يؤطر ويقنن ويضع القواعد ويصوغ الأعراف. وهكذا تتكامل ممارستا الداخلي (الكاتب) والخارجي (الناقد)، وتتجليان بوعي أسمى للعملية الأدبية ينبغي ان نحرص عليه بوصفه شرطا لا غنى عنه تبقى به هذه العملية سليمة معافاة تؤدي دورها في الحفاظ على قيم الانسان التي لا يكون انسانا الا بها، في مجتمع بات فيه هذا الانسان اقل الأشياء شأنا.

وبكلمات أخرى ان دارس النقد العربي الحديث مضطر للنظر في طبيعة النص الأدبي العربي الحديث (الذي يشكل جل موضوع مادته التي يدرسها) وذلك بغاية الوقوف على مكونات هذا النص التي هي نفسها مكونات النقد العربي الحديث[٤]. وهذا النظر هو ما يكفل وعيا اعمق وأشمل لموضوعه الذي يدرسه وبالتالي حصيلة اكثر صلة بعالمه الذي يحياه ويمارس وظيفته فيه.

١ ـ إجراءات

أول ما يمكن ان يقوم به الدارس لطبيعة النص الأدبي العربي الحديث هو تحديد ما يدخل في دائرة هذا النص، وما يخرج عنها.

ولما كان استبعاد ما يخرج عنها أيسر في البداية، فإنه يمكن استبعاد المجموعات الثلاث التالية من النصوص العربية الحديثة من دائرة البحث:

أ) النصوص العلمية كالنصوص الطبية والهندسية والطبيعية والفيزيائية والكيميائية وسواها؛

ب) النصوص الانسانية أي نصوص العلوم الانسانية والاجتماعية مثل نصوص التاريخ والجغرافية والاقتصاد والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللغويات وغيرها؛

جـ) النصوص التي موضوعها النص الأدبي كالنصوص النقدية، ونصوص التاريخ الأدبي، والدراسة الأدبية المقارنة، والبحوث الأدبية، وما شاكلها.

وهكذا يبقى في هذه الدائرة النصوص العربية الحديثة التي يغلب النظر اليها على انها أدب عربي حديث على تفاوت في الحكم عليها بين القراء والنقاد والكتاب. وبالطبع فان مسألة استغراق ما في هذه الدائرة من نصوص امر مستحيل بالنسبة لباحث فرد من جهة، ولبحث محدود المجال من جهة ثانية. الا انه يمكن المرء ان يقوم بتفحص عينات من هذه النصوص مستخدما بعض المؤشرات المساعدة التي تقوم مقام الدعائم المؤقتة لبناء في طور الانجاز الى ان ينهض بمقوماته الخاصة فيما بعد وعلى نحو اكثر امنا وطمأنينة. وعلى الرغم من ان إجراء كهذا يمكن ان يفسح هامشا واسعا للتحفظات الا انه مشروع ما دام ينطلق من النصوص الأدبية العربية نفسها، وعملي لأنه يكاد يكون الخيار الأمثل، وخاصة ان التفكير ببديل آخر لن يكون إلا عديم الجدوى في ضوء الوضع الراهن للدراسات التفسيرية أو النقد التطبيقي في الثقافة العربية الحديثة.

مهما كان الأمر، فإن المؤشرات الثلاثة التالية يمكن ان تستخدم في هذا الطور من البحث في طبيعة النص الأدبي العربي الحديث:

أ) يحسن بالمرء ان ينتقي عيناته من نصوص عربية حديثة تسود فيها الوظيفة الجمالية Aesthetic Function من منظور المجتمع العربي الحديث. ومعنى هذا ان أدبية Literariness هذه النصوص تقوم على عنصر نصي Textual واضح وملموس ويمكن تفحصه وليس من خلال مقاييس فوق نصية Extra- Textual .

ب) يحسن بالمرء كذلك أن ينتقي هذه العينات من نصوص عربية حديثة تصنف عادة تحت واحد أو آخر من الأجناس الأدبية العربية الحديثة المستلهمة من التراث الأدبي العربي القديم أو من التقاليد الأدبية الأجنبية. ويجدر بالذكر ان هذا التصنيف، على الأقل فيما يتعلق بالأجناس الأدبية الرئيسية، ينبغي ان يظفر بحد أدنى من الاجماع لدى المعنيين بعملية الانتاج الأدبي في المجتمع العربي الحديث ـ الكتاب والنقاد والقراء[٥].

جـ) يحسن بالمرء انتقاء نصوص عربية حديثة تستند، في سيادة الوظيفة الجمالية فيها من جهة، وفي انطوائها تحت هذا الجنس الأدبي او ذاك، الى اسس اجتماعية واضحة. بمعنى ان مسألة جماليتها او تصنيفها ينبغي ان تكون مسألة اجتماعية ينهض بها المجتمع من خلال مؤسساته وأعرافه وقيمه ونظمه ومعاييره، وليست مسألة فردية مرتبطة بفرد ما مهما كان موقعه في هذا المجتمع او درجة نفوذه.

٢ ـ ولكن ما مفهوم النص الأدبي

أول ما يجب على الدارس الاشارة إليه هو أن النص الأدبي إنشاء dis-course لغوي تسود فيه الوظيفة الجمالية الوظائف الأخرى كلها، وهو عادة يبدأ من نقطة «الجملة» وما تجاوزها[٦]. ولذا فإنه يقع خارج دائرة اهتمام عالم اللغة الذي يتوقف غالبا عند الجملة.

والنص الأدبي يمكن ان يكون جملة واحدة في بعض الأحايين، ويمكن ان يطول فيمتد مجلدات عدة. فالمثل إنشاء لا يتعدى الجملة الواحدة (على نفسها جنت براقش)، والرواية كـ (مدن الملح لعبد الرحمن منيف، والبحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست) قد تمتد آلاف الصفحات.

وعلى الرغم من ان فهم النقد الأدبي للنص قد تطور عبر العصور، الا ان الغالب اليوم ان ينظر إليه على انه نسيج، او فسحة، اذ لم يعد يتألف، كما يقول رولان بارت، «من سطر من الكلمات تطلق معنى «لاهوتيا» أوحد (رسالة المؤلف ـ الاله)، وإنما هو نسخة متعددة الأبعاد تتزاوج وتتصارع فيها كتابات ليس من بينها واحدة أصيلة: إن النص نسيج من المقبوسات ناشىء عن ألف مصدر ثقافي»[٧].

ولما كان النص الأدبي ممارسة لغوية تخضع للنظام اللغوي الخاص بلغة ما، يكتسب عادة عن طريق استيعاب نصوص أخرى انشئت في هذه اللغة، فإنه يقوم على عملية اعادة انتاج هذه النصوص السابقة له التي خبرها الأديب على نحو من الانحاء خلال مراحل تكوينه الثقافي. والحقيقة انه «مهما كان المضمون الدلالي للنص، فإن وضعه بوصفه ممارسة دالة sig-nifying practice يفترض مسبقا وجود نصوص أخرى. . . وهذا معناه

٣ ـ انظر: عبد النبي اصطيف، «نحو منظور معاصر لطبيعة النقد الأدبي»، الناقد (لندن)، السنة الأولى، العدد ٤، تشرين أول ١٩٨٨، ص ٣٧.

٤ ـ المرجع نفسه ص ص (٣٧ ـ ٣٨).

٥ ـ للتوسع في إشكالات النظر الى مفهوم الأجناس الأدبية في المجتمع العربي الحديث انظر عبد النبي اصطيف، «نظرة في تحديث الأجناس الأدبية»، الناقد (لندن)، السنة الاولى، العدد ٨، شباط، ١٩٨٩، ص ص (٣٦ ـ ٣٨).

٦ ـ أنظر مفهوم النص في:
Oswald Ducrot and Tzvetan Todorov,
Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language, Translated by Catherine Porter (Blackwell, Oxford, 1981), p.294.

٧ ـ انظر:
Roland Barthes,
The Rustle of Language, Translated by Richard Howard (Blackwell, Oxford, 1986), pp. 52-53.

القول ان كل نص، ومنذ البداية، خاضع لسلطة نصوص اخرى تفرض عليه عالما ما»[٨]. ان مقدرة الأديب تتبدى أساسا في تشكيله من هذه النصوص التي اتيح له تمثلها في أطوار سابقة من تكوينه الثقافي نصا جديدا يحمل بصماته الخاصة به، أو اذا ما شئنا استخدام لغة المجاز، حياكته من تلك الخيوط التي وفرها له تكوينه الثقافي نسيجا محكما غاية الاحكام يصعب، إلا على القارىء المتمعن المدقق، تمييز خيوطه المكونة له.

والنصوص إذ تنقل، وتقبس، وتتجاور على هذا النحو الجديد، تتفاعل، لا على أنها اجزاء تشبه قطع أحجية الجيكسو Gigsaw Puzzle، وانما بوصفها أنظمة دلالة[٩] لها تماسكها ووحدتها. وهي لذلك تتصارع ليسود بعضها البعض الآخر. وتتزاوج فيما بينها لتكون النظام الدلالي الجديد الذي يجسده النص الجديد. فالنص الشعري، على سبيل المثال، نص ينتج «في الحركة المعقدة لاثبات نص آخر ورفضه»[١٠]، على حد قول جوليا كريستيفا.

ولهذا فإن النص في بنيته الانشائية discursive structure هو مجموعة تناصات. أو هو حصيلة جملة من عمليات تفاعل النصوص التي تجري فيه. والحقيقة ان للتناص[*] الذي نقع عليه في دراستنا للنص الجديد محرقا مزدوجا، كما يقول جوناثان كولر:

«فهو من ناحية يلفت انتباهنا الى أهمية النصوص السابقة، مؤكدا ان فكرة استقلال النصوص فكرة مضللة، وأنه ليس للأثر المعنى الذي له الا لأن أشياء معينة كتبت مسبقا»[١١].

بل إن الكلمات التي تشكل هذا النص لا تشير أساسا الا الى كلمات اخرى وهذه الى غيرها وهكذا. فالنص بهذا المعنى علامات تشير الى علامات في فضاء عالم اللغة اللامحدود. يكتب كبير مفككي (ييل) Yale هارولد بلوم الذي اختار لشعور الكاتب، (إذ يرى سلطة نصوص الكتاب الآخرين على نصه الذي يزمع انشاءه)، نعت «قلق التأثير»[١٢] The Anxiety of Influence؛

«القصائد، لسوء الحظ، ليست أشياء، وإنما كلمات فقط تشير الى كلمات اخرى، وتلك الكلمات تظل تشير الى كلمات اخرى، وهكذا الى عالم اللغة الأدبية المزدحم على نحو كثيف. ان كل قصيدة هي قصيدة بينية Inter-poem، وأية قراءة لقصيدة هي قراءة بينية Inter-reading»[١٣]

ولكن التناص من ناحية أخرى، بمقدار إشارته الى أهمية النصوص السابقة له، يركز على دراسة هذه النصوص السابقة «كمساهمات في نظام ترميزي Code يجعل التأثيرات المختلفة للدلالة ممكنة». ومن هنا فإن دراسة التناص كما يؤكد كولر:

«ليست لذلك تفحصا للمصادر والمؤثرات كما تتصور تقليديا، إنها تطرح شبكتها على نحو أوسع يشمل الممارسات الانشائية المفضلة، والنظم الترميزية ذات الأصول المفقودة التي تجعل الممارسات الدالة للنصوص اللاحقة ممكنة»[١٤].

وفضلا عما تقدم فان للنص وجودا دنيويا، وهذا الوجود جزء لا ينفصم عن وجود منتجه ومتلقيه والمؤسسة التي ينتج بها (اللغة)، والمؤسسة الاجتماعية التي ينتج فيها. ان النصوص، كما يذكرنا ادوارد سعيد باستمرار، في كتابه العالم والنص والناقد، «دنيوية، وهي الى درجة ما أحداث» بل إنها «جزء من العالم الاجتماعي، والحياة الانسانية، وبالطبع اللحظات التاريخية التي تتوضح فيها وتفسر، حتى عندما يبدو انها تنكر ذلك»[١٥].

من هنا فإن دارس النص الأدبي معني بدراسة تناصاته من جهة، وانفتاحه على العالم الذي أنجبه من ناحية اخرى؛ معني به نصيا، وفوق نصي، حتى يستطيع فهم طبيعته، ويقترح - بالتالي - السبيل الأمثل لتناوله. □

٨ - أنظر:
Julia Kristeva,
La Revolution du langage poetique (Seuil, paris, 1974), pp. 388-9, cited by Jonathan Culler
The Pursuit of Signs: Semiotics Literature, Deconstruction (Routledge& Kegan Paul, London, 1981), p.105.

٩ - ربما يلاحظ القارىء ان صاحب هذه السطور يأخذ بفهم جوليا كريستيفا للتناص Intertextuality كما وضحته في كتابها ثورة في اللغة الشعرية، وانظر تعريفها له في:
Julia Kristeva,
Revolution in Poetic Language, Translated by Margaret Waller with an Introduction by Leon S. Roudiez (Columbia University Press, New York, 1984), pp.59-60.

١٠ - أنظر:
Julia Kristeva,
Semiotike' (Paris, Seuil, 1969), p.257.
cited by Jonathan Culler ibid p.107

١١ - أنظر:
Jonathan Culler, ibid, p.103

١٢ - الاشارة لعنوان كتابه المهم:
Harold Bloom,
The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry (Oxford University Press, New York, 1973).

١٣ - أنظر:
Harold Bloom,
Poetry and Repression (Yale University Press, New Haven& London, 1976), pp 2-3.

١٤ - أنظر:
Jonathan Culler, ibid, p.103.

١٥ - أنظر:
Edward W. Said,
The World, the Text and the Critic (Harvard University Press, Cambridge, Ma., 1983). p.4.

* ترجمة لمصطلح Intertextuality

صدر حديثاً
في السلسلة الشعرية الثانية

◇ أبواب الى البيت الضيق
بلند الحيدري
◇ رباعية الفرح
محمد عفيفي مطر
◇ رجل يرمي أحجاراً في بئر
فاضل عزاوي
◇ يمشي مخفوراً بالوعول
قاسم حداد
◇ القنديل المعتم
صلاح ستيتية
◇ وصول الغرباء
أمجد ناصر
◇ دهاليزي والصيف ذو الوطء
حلمي سالم
◇ قصائد من خشب
ابراهيم سلامة
◇ الضحك والكارثة
بندر عبد الحميد
◇ عيون فكرت بنا
خالد المعالي
◇ زول أمير شرقي
عبد اللطيف خطاب
◇ غبار يتعرّى في العتمة
محمد زين جابر
◇ إيقاع الجثث
نزار سلّوم
◇ قصائد لأجل الملاك الضائع
خالد النجار
◇ أشغال يدوية
زكريا محمد

رياض الريس للكتب والنشر
56 KNIGHTSBRIDGE
London SW1X 7N.I